الفصل الثاني

إحياء المماليك للخلافة العباسية في القاهرة بعد الاحتلال المغولي لبغداد

الفصل الثاني

إحياء المماليك للخلافة العباسية في القاهرة بعد الاحتلال المغولي لبغداد

كانت الخلافة العباسية تمثل رمزاً دينياً كان له الصدى الكبير في جميع أنحاء العالم الإسلامي لحقبة استمرت زهاء خمسة قرون ونصف، كما كانت محط أنظار كل حكام الأقاليم التابعة لها لما تضفيه من شرعية على حكمهم [1]، وبهذا مارس خلفاء بني العباس نفوذاً سياسياً، وسلطة مركزية على جميع الأقاليم الإسلامية التابعة للخلافة، ولاسيما في العصر العباسي الأول (132-247هـ/749-861م)، إلا أن الضعف بدأ يدب في جسم الخلافة ليمزقها إلى أوصال، مما مكن القوى الأجنبية الطامعة كالبويهيين والسلاجقة من احتلال بغداد مقر الخلافة العباسية وعاصمتها [2]، ونتيجة لحالة الضعف والانحلال التي سادتها قام بعض حكام الأقاليم التابعين لها بإعلان الاستقلال عنها، والاعتراف بالتبعية لها بشكل اسمي فقط،ولم يكتف بعضهم بذلك بل سعوا إلى أكثر من ذلك، محاولين نقل مقر الخلافة العباسية إلى مناطق نفوذه[3].

لقد كان احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر (254-270هـ/868-883م) [4]، أول من حاول تنفيذ ذلك، حيث سعى إلى استدراج الخليفة العباسي المعتمد بالله (256-279هـ /869-892م) من بغداد إلى مصر في سنة 269هـ/ 882 م مستغلاً الموقف المتوتر الذي ساد بين الخليفة وأخيه الموفق الذي جرده من صلاحياته كافة، وأصبح هو الرجل الأول في الدولة، فكان هذا محفزاً كبيراً لأحمد ابن طولون إلى السعي من اجل تحقيق هدفين:

---

(1) بيتر توراو، الظاهر بيبرس، ترجمة: محمد جديد (د.م.، عمان: 2002م)، ص 113؛ فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ (دار النهضة العربية، بيروت: 1980م): ج1/ص279.

(2) عماد الجواهري، صراع القوى السياسية في المشرق العربي من الغزو المغولي حتى الحكم العثماني (مطابع التعليم العالي، الموصل: 1990م)، ص 17.

(3) لقد نقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى إقليم خرسان في عهد الخليفة المأمون ودامت تسع سنوات ومن ثم عادت إلى بغداد سنة (204هـ/ 819م). أما في عهد الخليفة المعتصم نقل مقر الخلافة إلى سامراء. للمزيد من التفاصيل ينظر: احمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي (دار النهضة العربية، بيروت: 1971م)، ص 102، 117.

(4) أحمد بن طولون: هو تركي الأصل من سبي فرغانة، أرسله نوح بن سامان عامل بخارى هدية إلى الخليفة المأمون، فتدرج في المناصب حتى أصبح من أمراء العسكر. للمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية ودورها السياسي والعسكري. ينظر: سهيل زكار، تاريخ العرب منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد (د.م.، بيروت: 1975م)، ص 399؛ خاشع المعاضيدي وآخر، تاريخ الدويلات العربية الإسلامية في المشرق والمغرب (مطبعة الحرية، بغداد: 1979م)، ص 276.

1. نقل مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى مصر للرفع من مكانتها، وجعلها تحتل مركز الصدارة في العالم الإسلامي، وهذا ما يدعم مركزه دينياً وسياسياً.
2. أراد تجريد الموفق من السند الشرعي له، فكتب يدعو الخليفة المعتمد بالله إلى المجيء إلى مصر، وترك بغداد حفاظاً على حياته، وعلى هيبة الخلافة العباسية، فكان نص رسالته ((وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان، مؤلفة قلوبهم، مجتمعة آراؤهم، شديد بأسهم، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين ... ويرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولكن فيه ما نخافه في كل لحظة منه عليه ...)) [1].

لا شك أن أحمد ابن طولون أراد من خلال تلك المحاولة دعم دولته الجديدة في مصر والشام لإضفاء الشرعية ها، والاهم من ذلك كله انه أراد التخلص من دفع الضرائب السنوية التي كان يرسلها إلى مقر الخلافة العباسية في بغداد، إلا أن أهدافه لم تتحقق بعد ان تمكن الموفق من إلقاء القبض على الخليفة المعتمد بالله في الموصل وأعاده إلى بغداد [2].

لم يتوقف الأمر عند محاولات احمد ابن طولون لنقل مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى مصر، فكانت المحاولة الثانية من قبل محمد الإخشيد بن طغج (332-334هـ/943-945م) [3] في سنة 333هـ/ 944م لاجتذاب الخليفة المتقي إلى مصر (329-333هـ/ 940-944م)، ولاسيما بعد استبداد أمراء الأتراك في بغداد [4]، فلقيه في مدينة الرقة شمال الفرات، وطلب منه أن يذهب معه إلى مصر، إلا إن الخليفة رفض تلبية طلبه، وأصر على عدم ترك بغداد مقر الخلافة العباسية وأسرته [5]، وبفشل هاتين المحاولتين بقيت الخلافة العباسية في

(1) المعاضيدي، تاريخ الدويلات، ص 227؛ العبادي، في التاريخ العباسي، ص133.
(2) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام(دار النهضة العربية، بيروت، 1969م)، ص180-181؛ في التاريخ العباسي، ص134.
(3) محمد الإخشيدي: هو مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر والشام والحجاز، والإخشيد باللغة التركية تعني ملك الملوك توفي سنة 334هـ/945م. ينظر: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: احمد بن شعبان وآخر (د.م.، القاهرة: 2003م): ج11/ص185؛ شهاب الدين أبو الفلاح ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (د.م، بيروت: 1998م): ج3/ص41.
(4) بعد أن ساءت العلاقة بين الخليفة المتقي وبين أمير الأمراء التركي توزون بعد توليه المنصب (331هـ/ 942م) اضطر الخليفة إلى مغادرة بغداد متوجهاً نحو الموصل طالباً المساعدة من الحمدانيين سنة (332هـ /943م) للمزيد من التفاصيل ينظر: عز الدين ابي الحسن ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: خليل مأمون شحا (د.م.، بيروت 2002م):ج6/ص478، 483؛ المعاضيدي، تاريخ الدويلات، ص249250.
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ج6/ص491؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص 181.

بغداد شامختاً لقرنين من الزمان مواجهة كل الظروف والأزمات السياسية الصعبة التي عاشتها، إلا أنها انهارت في النهاية على يد اكبر قوة همجية عرفها التاريخ آنذاك، إلا وهي الغزو المغولي.

ظهر المغول كقوة كبرى في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ولم يتعرض العالم الإسلامي لظروف عصيبة مثل التي تعرض لها من جراء الغزو المغولي[1]، إذ دمرت الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان (601-624هـ/1204-1227م) [2] الكثير من المدن الإسلامية، وأخذت تقتل وتدمر كل ما يقع أمامها، ولم يكن المسلمون موحدي القوى للوقوف بوجه هذه الهجمة الشرسة، واستمر أبناء جنكيز خان وأحفاده في سياستهم التوسعية لإنشاء اكبر إمبراطورية مغولية حتى وصلوا إلى مشارف بغداد بقيادة هولاكو(649-664هـ/1251-1265م)[3].

لا شك أن ظروف وأحداث الغزو المغولي لبغداد، وما أحدثه من تدمير تخريب كان له انعكاسه الواضح على المستوى الرسمي والشعبي، فقد وصف احد الشعراء حال الخلافة العباسية آنذاك، وضياع الديار نتيجة لذلك الغزو[4]، إلا أن مصير الخلافة العباسية بعد

---

(1) طارق فتحي سلطان، التاريخ الإسلامي في العصر العباسي 334-656هـ/945-1258م (ابن الأثير، موصل: 2006م): ج2/ص201؛
W.B. Stevenson , The Crusaders in the East (No. p. , London: 1965) , p.333.

(2) جنكيزخان: يعد من ابرز قادة المغول وقد اختار لنفسه هذا الاسم، واسمه الحقيقي تموجين ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص، وقد تمكن تموجين بعد حروب ومنازعات مع ابناء جنسه من تولي زعامة المغول سنة 601هـ/ 1204م.ينظر: العبادي، قيام دولة المماليك، ص 145؛ الصياد، المغول: ج 1/ص279.

(3) اصدر هولاكو أوامره بالتقدم نحو بغداد، فتوجه بايجو من آسيا الصغرى وأمره أن يعبر نهر دجلة بالقرب من الموصل وان يلتقي بجيوش بكاتيمور. أما القائد كتبغا فدخل إيران متوجهاً نحو العراق عن طريق لورستان. للمزيد من التفاصيل عن سير القوات المغولية. ينظر: ريجارو كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة: فؤاد جميل (مطبعة شفيق، بغداد: 1962م): ج1/ص214 وما بعدها.

(4) قال الشاعر تقي الدين بن أبي اليسر عن احتلال بغداد:

لسائل الدمع عن بغداد أخبارها فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذي شرقت به المعالم قد عفا أقفار
يا نار قلبي من نار الحرب وغى شبت عليه وراضى الربع إعصار

منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم (د.م.، دمشق: د.ت)، ص 150؛ الجواهري، صراع القوى، ص 17.

الاحتلال، وهل تم القضاء عليها بشكل نهائي ؟ أم أنها انتقلت إلى مكان أخر ؟ لتعود إلى النهوض مرة أخرى. والأسئلة التي تطرح نفسها هنا من الذي أحيا الخلافة العباسية ؟ ومن هم الأشخاص الذين ثبت نسبهم بأنهم ينتمون إلى النسل العباسي ؟ وما هي ابرز لنتائج التي ترتبت على ظهور الخلافة العباسية من جديد ؟ وما المكانة التي حظي بها الخلفاء العباسيون ؟ لذا ستكون الإجابة على هذه التساؤلات محور دراستنا في هذا الفصل.

بعد أن تمكنت القوات المغولية من اجتياح مدينة بغداد واحتلالها في سنة 656هـ/1258م، أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم بالله (640-656هـ/1242-1258م) أخر الخلفاء العباسيين في سنة 656هـ/1258م[1]، فأصبح العالم الإسلامي بدون خليفة [2]، مما أوجد فراغاً كبيراً شعر به جميع المسلمين، نتيجة لتلك المأساة الأليمة التي حلت بهم. أما على مستوى الحكام المسلمين المعاصرين، فقد وجدوا من جراء ذلك الحدث الكبير ان تهديدهم ازداد أيضا، وانه سيؤدي إلى تفكك العالم الإسلامي إلى دويلات متناحرة ومتصارعة.

وعلى ما يبدو أن دور الخلافة العباسية بدأ بالظهور من جديد في أوائل سنة 658هـ/1259م في دمشق على يد الملك الناصر يوسف الأيوبي (648-659هـ/1250-1260م) أمير دمشق وحلب، عندما علم من عيسى بن مهنا أمير العرب بالأطراف الشرقية والشمالية المتاخمة للحدود العراقية، بأن أحد أمراء البيت العباسي، هو أبو العباس احمد أحد أحفاد الخليفتين المسترشد بالله والمستظهر بالله يرغب في التوجه إلى دمشق، فبعث الملك الناصر رسالة إلى ابن مهنا يطلب منه إرسال أبو العباس إليه، لمبايعته بالخلافة، وذلك لأمرين:

1. تعزيزا لمركزه من خلال اتخاذه سلاحاً يشهره في وجه سلاطين دولة المماليك التي نشأت حديثاً في مصر.

(1) يذكر أن الخليفة العباسي قتل ومعه ابنائه أبا العباس احمد وأبو الفضائل عبد الرحمن وعدد من حاشيته، أما عن الطريقة التي قتل بها الخليفة، فيقال انه وضع في عدل وتم رميه في إسطبل للخيل فرفس حتى مات. للمزيد ينظر: علي حسني الخربوطلي، الإسلام والخلافة (د.م.، بيروت: 1969م)، ص 277؛ توراو، الظاهر بيبرس، ص114.

(2) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2/ص279؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي: ص 354؛ توراو، الظاهر بيبرس، ص 114.

2. إن يكون له سنداً شرعياً أمام العالم الإسلامي، إلا أن ذلك الطموح قضي عليه من قبل القوات المغولية، عندما قامت بالهجوم على بلاد الشام مما اضطر أبو العباس إلى العودة مرة أخرى إلى الأمير عيسى بن مهنا [1].

حاول السلطان قطز حاكم مصر (655-658هـ/1257-1259م) إعادة الخلافة العباسية إلى بغداد سنة 658هـ/ 1259م بعد انتصاره على الجيش المغولي في معركة عين جالوت [2]، إذ أرسل إليه الأمير عيسى بن مهنا يخبره بوجود أمير عباسي يقيم عنده، فبعث السلطان قطز بدوره رسالة إلى الأمير عيسى يطلب منه إرسال أبو العباس إلى دمشق، وبعد وصوله إلى دمشق، قال السلطان قطز للأمير ابن مهنا: ((إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده ان شاء الله))، ولكن هدف السلطان قطز لم يتحقق لمقتله على يد السلطان الظاهر بيبرس، فعاد الأمير العباسي مرة ثانية إلى الحدود الفراتية [3].

بعد فشل كل من الملك الناصر الأيوبي والسلطان قطز في إقامة خلافة عباسية سواء في دمشق أم في مصر، بقي المشروع قائما حتى تولى السلطان الظاهر بيبرس (659-676هـ / 1260-127م) أمر السلطنة في مصر، واقسم له المماليك يمين الطاعة والولاء، إلا انه أدرك عدم إختلافه عن غيره من المماليك، ولابد أنهم سيفعلون به ما فعلوه بمن سبقوه، فبدء يبحث عن سنداً قوياً، فوجد ضالته في الجانب الديني، ليتمكن من الوقوف بوجه أعداءه من جهة [4]، كما أراد إضفاء صفة شرعية على حكمه، كما فعل أسلافه من المماليك الأتراك من جهة أخرى، وان اختلفت أساليبهم عما اتبعه السلطان بيبرس [5]، الذي هدف في الوقت ذاته إلى توسيع رقعة مملكته لتشمل الأراضي المقدسة في بلاد الحجاز، فضلا عن

(1) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 181؛
Stevenson , The Crusaders , p. 333.

(2) عين جالوت: مدينة بين بيسان ونابلس وهي من أعمال فلسطين. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان : ج4/ص177 .

(3) الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 228؛ عاشور، العصر المماليكي، ص354؛
Stevenson , The crusaders , p. 334.

(4) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص 39؛ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، ط2 (دار الثقافة، بيروت: 1980م): ج3 /ص536-537.

(5) كان الأتراك يدعون أنهم حكموا مصر كأوصياء على الأمراء الأيوبيين الأطفال، فحكم أيبك مصر وصيا على طفل أيوبي من أحفاد صلاح الدين. أما قطز، فكان وصيا على أمير صغير، إلا أن السلطان بيبرس فقد رأى أن يستند إلى الخلافة العباسية في توطيد دعائم حكمه. ينظر: الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 230.

ذلك أراد أن يقف بوجه أطماع المماليك الآخرين، بل أن المماليك كانوا يشعرون بأنهم غير أصلاء، وأنهم اغتصبوا الحكم في مصر وبلاد الشام من أصحابه الشرعيين، فإحياء الخلافة العباسية يعطي حكمه صفة شرعية [1]، فأرسل في سنة 659هـ/1261م إلى أحد أفراد البيت العباسي، وهو احمد بن الإمام الظاهر الذي تمكن من الهرب من بغداد ليبايعه بالخلافة، فطلب منه الظاهر بيبرس أن يأتي إلى مصر، ويأخذ منه عهداً بحكم مصر[2]، والحقيقة أن الظاهر بيبرس أراد من وراء تلك الخطوة إحياء الخلافة العباسية أولا، لدعم مركزه من خلال اعتراف الخليفة بحكمه ثانياً [3].

وبناءاً على طلب الظاهر بيبرس توجه الأمير أبو العباس إلى دمشق، وفي الوقت ذاته علم أن شخص آخر ينتمي إلى البيت العباسي يدعى أبا القاسم احمد قد سبقه في الوصول إلى القاهرة بثلاثة أيام، فعاد أدراجه إلى حلب خوفاً من إلقاء القبض عليه من قبل المماليك، وكان مع أبي العباس عدداً من الأتراك، فتوجه من حلب إلى مدينة سلمية [4]، فوجد أهلها متحصنين خوفاً من نائب حلب الأمير شمس الدين العزيزي، الذي انتهز فرصة وجود أبو العباس، فاخذ البيعة له، ولقبه الحاكم بأمر الله ثم توجه إلى حران [5]' لأخذ البيعة من الشيخ شهاب الدين ابن تيمية والد شيخ الإسلام ابن تيمية [6].

على ما يبدو أن الأمير شمس الدين العزيزي أراد من هذا الأمر التمرد على السلطة المركزية في القاهرة وإعلان الانفصال عنها، لأنه أدرك أن وجود أحد أفراد البيت العباسي يعطي له سنداً قويا في حالة قيام الخلافة العباسية في بلاد الشام.

وقد أشار النويري إلى كيفية وصول الإمام احمد إلى القاهرة، فذكر انه في سنة 659هـ/ 1260م ورد كتاب من الأمير علاء الدين طيبرس، والأمير علاء الدين البند قدار

(1) الخربوطلي، المرجع نفسه، ص 231.
(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام العصور، ص 39.
(3) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (مطبعة السعادة، مصر: 1952م)، ص 439؛ عبد الله بن اسعد بن علي اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان (دار الكتاب الإسلامي، القاهرة: 1993م): ج4/ص151.
(4) سلمية: بلدة صغيرة وهي من أعمال حماة بينهما حوالي 70 كم. للمزيد. ينظر: الحموي، معجم البلدان : ج3/ص240-241.
(5) حران: مدينة بين الموصل وبلاد الشام. ينظر: الحموي، معجم البلدان: ج2/ص235.
(6) شمس الدين محمد بن احمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (د.م.، بيروت: 2005م): ج14/ص 38-39.

الوزيري لنائب دمشق، وكان مضمونه: ((انه وصل إلى جهة دمشق في أول الغوطة رجل ادعى انه احمد ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب من خمسين فارسا))، ومما يؤكد هذا ان الأمير سيف الدين قليج البغدادي عرف أمراء العرب، وقال: ((بهؤلاء يجعل القصد من العراق)) [1]، بينما يذكر المقريزي أن تلك الشخصية العباسية التي وصلت إلى دمشق كان اسمها أبو القاسم احمد الأسمر بن الإمام الظاهر بأمر الله بن الإمام الناصر لدين الله، وبهذا النسب يكون عم المستعصم بالله واخو المستنصر بالله [2]، ويذكر ابن الحنبلي أن المستنصر كان محبوساً في بغداد من قبل التتار، فلما أطلق سراحه توجه إلى بلاد الشام [3]، والذي يمكن ملاحظته من خلال الروايات الأنفة الذكر أنها جميعاً أجمعت على أن نسب هذا الخليفة يعود إلى الإمام الناصر لدين الله.

وبناءاً على تلك المعلومات المهمة التي وصلت إلى السلطان الظاهر بيبرس أرسل إلى نائبيه في بلاد الشام اللذان أرسلا له رسالتهما يأمرهما أن يقوما بخدمته وتعظيم أمره وان يرسلاه إليه مع توفير الحماية الكاملة له [4].

بعد كل تلك التوصيات المهمة بحق الشخصية العباسية، توجه الأخير نحو القاهرة في رجب سنة 659هـ/1260م، وعند وصوله إلى مشارفها خرج السلطان الظاهر بيبرس لمقابلته شخصياً بكل مظاهر الإجلال والتقدير، ومعه كبار رجال دولته منهم الوزير بهاء الدين بن حنا وقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز والشيخ عز الدين عبد العزيز [5] وسائر الأمراء وجميع العسكر، فضلاً عن خروج اليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، وزينت مدينة القاهرة بالرايات السود التي تمثل شعار العباسيين، فانزل في مكان خاص يليق به كان قد هيئ له مسبقاً[6].

---

(1) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وآخرون (دار الكتب العلمية، بيروت: 2004م): ج30/ص14؛ تقي الدين أبي العباس المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية، بيروت: 1997م): ج1/ص 528.

(2) المقريزي، السلوك: ج 1/ص528؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2/ص303؛ عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، تحقيق: محمود ديوب (بيروت: 1997م): ج2/ص324.

(3) ابن العماد، شذرات الذهب:ج5/ص433.

(4) المقريزي، السلوك: ج1 /ص528.

(5) أبو الفدا، المختصر:ج 2/ص324.

(6) المقريزي، السلوك: ج1/ص528؛ الكتبي، عيون التواريخ : ج2/ص251؛ عاشور، العصر المماليكي، ص355-356؛ الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص229.

في الحقيقة إن السلطان الظاهر بيبرس أراد أن يتأكد من صحة نسب الإمام العباسي من اجل أن يعينه خليفة في مصر، فبعد مضي ثلاثة أيام على وصول الإمام عقد له اجتماعاً بقاعة الأعمدة لإثبات نسبه، وقد حضر أثناء إقرار النسب كلاً من قاضي القضاة تاج الدين،ونواب السلطان، والفقهاء، وأكابر المشايخ، واعيان الصوفية [1]، ولما اكتمل حضور الجمع، وبوجود السلطان شهد العرب المرافقين له، وخادم البغاددة (أي من بغداد) بصحة نسبه إلى البيت العباسي، وانه الإمام احمد بن الإمام الظاهر بأمر الله وشهد له بالاستفاضة[2] القاضيان جمال الدين يحيى وصدر الدين موهوب الجزري وغيرهما من القضاة والفقهاء، فاقر النسب قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز [3]، وأطلق عليه لقب المستنصر بالله (659-660هـ/1261-1262 [4]، وأمر السلطان الظاهر بيبرس أن ينقش اسم الخليفة على السكة وان يخطب له على المنابر [5].

وعلى الرغم من حرص السلطان الظاهر على إثبات نسب الخليفة العباسي الجديد، إلا أن الذي يفهم من بعض نصوص المؤرخين أن نسبه كان فيه بعض الشك، فيروي أبو الفدا انه في رجب سنة 659هـ/1260م قدم إلى مصر جماعة من العرب، ومعهم شخص اسود اللون اسمه احمد، وزعم أصحابه الذين كانوا معه انه احمد ابن الإمام الظاهر بالله، وهو عم المستعصم بالله [6]، في حين يذكر ابن إياس أن الإمام العباسي احمد بن الظاهر كانت أمه حبشية [7]، ومما يؤكد ذلك أن هذا الشك الذي انتشر بين عامة الناس في القاهرة،

(1) المقريزي، السلوك: ج 1/ص528؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ج5 /ص433؛ عاشور، العصر المماليكي، ص355-356؛ الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 229؛ توراو، الظاهر بيبرس، ص114.

(2) الاستفاضة: فاض الخبر واستفاض أي شاع، وهو منتشر بين الناس، ولا تقل مستفاض. ينظر: محمد بن ابي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر (مكتبة لبنان، بيروت: 1995م):ج1/ص216.

(3) المقريزي، السلوك: ج1/ص 528؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2 /ص304؛ الكتبي، عيون التواريخ: ج2/ص 252.

(4) لقب بهذا اللقب على لقب اخيه المستنصر بالله باني المدرسة المستنصرية ببغداد، وتسلسله الثامن والثلاثين من بين خلفاء بني العباس؛ المقريزي، السلوك: ج1/ص528.

(5) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام العصور، ص 39؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص465؛ توراو، الظاهر بيبرس، ص 115.

(6) أبو الفدا، المختصر: ج2/ص324؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص 184.

(7) محمد بن احمد بن اياس، بدائع الزهور في وقائع الشهور (مطابع الشعب، القاهرة: 1960م)، ص 83.

بدليل انهم لقبوا الخليفة المستنصر بالله بلقب (الزراتيني، الزراتيقي، الزرابيني)، وكان هذا اللقب في مصر يطلق على الشخص الأسود [1].

ومهما يكن من أمر حول صحة نسب الخليفة الجديد، فان السلطان الظاهر بيبرس كان في حاجة ماسة إلى دعم مركزه، وبعد إقرار نسب الخليفة، بدأت عملية المبايعة، فكان أول من بايعه بالخلافة قاضي القضاة تاج الدين، ومن ثم السلطان الظاهر بيبرس على العمل: ((بكتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد (ﷺ) وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله واخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها)) [2]، ثم قام الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمبايعة الخليفة، فلما تمت البيعة قلد الإمام المستنصر بالله السلطان الظاهر بيبرس حكم البلاد الإسلامية، فضلاً عما ما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار، واستمراً لعملية البيعة تقدم الناس، فبايعوا الخليفة، وفي المقابل كتب السلطان بيبرس إلى الملوك والنواب في سائر الممالك أن يأخذوا البيعة للخليفة المستنصر بالله أبي القاسم احمد بن الإمام الظاهر، وان يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده [3]، وتجسيدا لذلك خطب الخليفة يوم الجمعة بالناس فاثنا على السلطان الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة [4]، وعندما رأى بيبرس انه في حاجة ماسة إلى تثبيت نفسه لمواجهة أعدائه من أمراء المماليك طلب من الخليفة المستنصر بالله، بان يعطيه تفويضاً شرعياً يستند إليه في حكمه، وان يمنحه التقليد بولاية مصر والشام والحجاز واليمن والعراق، وما يتجدد من فتوحاته، وفي مقابل ذلك التقليد طلب الخليفة من السلطان بيبرس بان يعيد الخلافة إلى بغداد قائلا له: ((وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول فأيقض لنصرة الإسلام...)) [5].

(1) أبو الفدا، المختصر: ج 2/ص304؛ المقريزي، السلوك: ج1/ ص528؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص 185؛ عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة : د.ت.)، ص181 .

(2)المقريزي، السلوك: ج1/ص530؛ الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 229؛ توراو، الظاهر بيبرس، ص 115.

(3)المقريزي، السلوك: ج1/ص530؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص46.

(4) الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 229-330.

(5) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص 39؛ محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر(مطبعة الاعتماد، مصر: 1947م)، ص 68-69.

بعد أن اطمأن السلطان بيبرس على سلطته قرر تنفيد طلب الخليفة المستنصر بالله لإعادة مقر الخلافة العباسية إلى بغداد لذا جهز حملة عسكرية في رمضان بلغ عدد مقاتليها ما يقرب من ألفين وسبعمائة مقاتل للتوجه إلى بلاد الشام، وأثناء انطلاق الحملة سار الخليفة والسلطان بيبرس، فضلاً عن اشتراك أبناء أمير الموصل مع تلك الحملة [1]، وعند وصولها إلى مدينة دمشق عزم السلطان بيبرس على أن يزود الحملة بمقاتلين أضافيين، فتم ذلك حتى بلغ عددها عشرة ألاف مقاتل من اجل الاستعداد الكامل للتوجه نحو العراق لمقاتلة التتار، وإعادة ملك العباسيين [2].

والجدير بالذكر أن الظاهر بيبرس لم يف بعهده للخليفة المستنصر بالله بتسيير الحملة معه، وكان السبب في تغيير رأيه هو أن احد أبناء أمير الموصل، قد وشا للسلطان ونصحه بالعدول عن فكرة إعادة الخلافة العباسية إلى بغداد، وما يترتب على ذلك من هدم سلطنته في مصر وبلاد الشام لو تمكن فعلاً من القضاء على المغول وإعادة ملك العباسيين، ويعلق المقريزي على ذلك ذاكراً قول ابن أمير الموصل للسلطان بيبرس: ((فان الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر)) [3].

لذلك قرر السلطان بان يزود الخليفة بثلاثمائة مقاتل بدلا من عشرة ألاف مقاتل من العرب والترك بقيادة المع قادة الجيش المملوكي وهم بلبان الرشيدي وشمس الدين سنقر الرومي بان يسيروا إلى حلب متوجهين إلى الفرات، وإذا ورد إليهما كتاب الخليفة، وهو يأمرهم بالمسير إليه فعليهم التوجه إلى السلطان [4].

كان السلطان بيبرس ينوي فعلاً إحياء الخلافة العباسية، وإعادتها إلى بغداد، لولا انه غير موقفه بعد أن نصحه احد أبناء أمير الموصل، ولذلك لم يرغب في أن يزج اكبر عدد من جيشه لمقاتلة المغول، فإذا كانت النتيجة عكسية بخسارته في تلك المعركة، فان هذا

(1) لقد كان ابناء أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ هم الصالح إسماعيل واسحق صاحب جزيرة ابن عمر والمظفر علي صاحب سنجار. للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2 /ص305؛ الكتبي، عيون التواريخ: ج2/ص 255؛ توراو، الظاهر بيبرس، ص 118.
(2) المقريزي، السلوك: ج1/ص535-536؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص 69.
(3) السلوك: ج1/ص537.
(4) المقريزي، السلوك: ج1/ص537.

يهدد كيان دولته، لذا أراد الحفاظ على جزء من قواته العسكرية فأرسل قوة صغيرة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل وفاءاً بعهده للخليفة [1].

بعد اتخاذ الإجراءات الكاملة لتجهيز الحملة ودع السلطان الخليفة الذي توجه على رأس هذه القوة لمقاتلة المغول في الثالث عشر من شهر ذي القعدة ومعه أبناء أمير الموصل، إلا أنهم فارقوه أثناء الطريق إذ توجه كل منهم إلى مملكته، فوصل الخليفة إلى مدينة الرحبة [2].

فقدم إليه الأمير علي بن حذيفة من آل فضل بأربعمائة فارس من العرب، فضلاً عن وصول إمدادات أخرى إليه من الأمير عز الدين بركة صاحب حماة في ثلاثين فارس، وبعد تكامل الإمدادات توجه الخليفة بتلك القوة المتواضعة نحو منطقة مشهد علي شمال حلب، وهناك وجد رجلاً يدعي انه من بني العباس، وقد اجتمع إليه سبعمائة فارس من التركمان جهزهم إليه الأمير أقوش البرلي من حلب، فبعث الخليفة المستنصر بالله إلى التركمان فاستمالهم إليه،وأرسل إلى الرجل العباسي أيضاً، وأقنعه في اجتماع الكلمة وعن إقامة الدولة العباسية من جديد[3].

وعلى الرغم من ذلك فقد أشار الذهبي إلى أن الخليفة المستنصر بالله خدع الرجل العباسي من خلال قوله: ((فاعمل بحيلة، وافسد التركمان على الحاكم، ودخل الحاكم بطاعته، وانقاد له)) [4].

وعلى ما يبدو انه كانت هناك مراسلات بين الخليفة والسلطان، اذ كتب الخليفة إلى السلطان يخبره، بأنه وصل بقوته إلى عانة وحديثة متوجهاً نحو هيت [5]، وتمت له السيطرة عليها [6]، وفي أثناء ذلك وصلت رسائل من أهل العراق يطالبون بتقديم المساعدة لهم وتخليصهم

(1) أبو الفدا، المختصر: 2 / 324؛ المقريزي، السلوك: ج1/ص537.
(2) الرحبة: مدينة تقع بين بغداد والرقة شرق نهر الفرات. ينظر: الحموي، معجم البلدان: ج3/ص34-35.
(3) المقريزي، السلوك: ج1/ص537؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون (د.م.، بيروت: 1985م): ج23/ص171.
(4) تاريخ الإسلام: ج14/ص37.
(5) هيت: مدينة بين الرحبة وبغداد تقع على شاطئ الفرات ومعناها الهوة وسميت نسبة إلى هوة الأرض أي المنخفضة، وقيل سميت باسم بانيها هيت البلندي وهو من ابناء مدين بن إبراهيم عليهما السلام. ينظر: الحموي، معجم البلدان: ج5/ص420-421؛ المقريزي السلوك: ج1/ص537.
(6) أبو الفدا، المختصر: ج2/ص324.

من الاحتلال المغولي [1]، وفي المقابل توجه القائد المغولي كربغا من بغداد ساعياً لمقاتلة جيش المستنصر بالله، فاتجه نحو الأنبار، ودخلها، وقتل من كان فيها، وبعد ذلك التقى الجيشان غير المتكافئين، مما أضطر الخليفة المستنصر بالله إلى تقسيم جيشه إلى قسمين فجعل التركمان والعرب على طرفي العسكر، واختص هو ومن معه في القلب وانقض على الجيش المغولي وهزمهم في بداية الأمر، إلا أن عنصر الخيانة لدا بعض أفراد جيشه حول النصر إلى هزيمة، فيذكر المقريزي معلقاً على ذلك قائلاً: ((وخذله العرب والتركمان، فلم يقاتلوا)) [2]، فكانت النتيجة ان خرج عليه كمين من المغول، فانهزم العرب والتركمان، ومعهم الأمير أبي العباس احمد، فبقي هو وعدد قليل من جيشه، الذي أحاط به المغول، فقتلوا من كان في ساحة المعركة وجرح الباقي [3]، أما الخليفة المستنصر بالله ، فقد نجا من ميدان المعركة مجروحاً، والتجأ إلى جماعة من العرب، فمات عندهم، وبهذا كانت مدة خلافته في القاهرة اقل من سنة [4].

ومن الجدير بالذكر أن المأساة الأليمة التي حلت بالخليفة المستنصر بالله كان سببها الخيانة من قبل أبو العباس الذي دبر تلك المؤامرة، فحاول إقناع عناصر الجيش من العرب والترك بعدم القتال في المعركة يدفعه إلى ذلك عامل الانتقام، عندما التقى أول مرة مع الخليفة المستنصر بالله الذي استمالة أصحابه وخدعه أيضاً، فانقاد له في نهاية الأمر.

لم ينج من تلك المعركة سوى الأمير العباسي احمد ومعه خمسين فارساً [5]، وعندما وعندما علم السلطان الظاهر بيبرس بوصوله إلى دمشق ارسل إليه يستدعيه إلى القاهرة، وتلبية لطلب السلطان توجه الأمير العباسي ومعه أبنه [6]، فوصلا إلى القاهرة في اليوم السابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة 660هـ / 1262م [7]، فاحتفل السلطان بيبرس بلقائه،

(1) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2/ص304؛ أبو الفدا، المختصر: ج2/ص324.
(2) المقريزي، السلوك: ج1/ص541.
(3) المقريزي، السلوك: ج1/ص541؛ الذهبي، سير أعلام: ج23 /ص171؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص 186-187؛ توراو، الظاهر بيبرس، ص 118.
(4) السلوك: ج1 /ص541.
(5)العبادي، قيام دولة المماليك، ص187.
(6) الذهبي، تاريخ الإسلام: ج14/ص37؛ الكتبي، عيون التواريخ: ج2/ ص 266.
(7) المقريزي، السلوك: ج 1/ص541.

وانزله في البرج الكبير بقلعة الجبل، كما فعل ذلك مع الخليفة المستنصر بالله، وجهز له كل ما يحتاج [1].

وفي اليوم الخامس عشر من شهر رجب وصل جماعة من البغاددة [2] الذين نجو من مذبحة المغول بقيادة الأمير سيف الدين سلار [3] فأكرمهم السلطان في القاهرة [4] ومنحهم جزء من الاقطاعات في مصر [5].

(1)المقريزي، السلوك: ج1/ص542؛ الكتبي، عيون التاريخ: ج2/ص287؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص 187.

(2) البغاددة: هم مماليك الخليفة المستعصم بالله الذين فروا من مذبحة المغول بزعامة الأمير سيف الدين سلار.ينظر: العبادي، قيام دولة، ص 188.

(3) سيف الدين سلار: من الأمراء البارزين في الدولة المملوكية، اشتراه الخليفة العباسي الظاهر بامر اله ثم انتقل إلى خدمة الخليفة المستعصم، فأصبح والياً على واسط والكوفة والحلة، فبعد دخول المغول إلى بغداد توجه إلى مصر وعينه بيبرس والياً على نابلس ومن ثم أصبح أمير طبلخانه في مصر. ينظر: المقريزي، السلوك: ج1/ص541؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2 /ص305؛ العبادي، قيام دولة،ص188.

(4)المقريزي، السلوك: ج 1/ص542.

(5) أبو الفدا، المختصر: ج2/ص325.

وفي اليوم الثامن من شهر محرم أمر السلطان بيبرس بعقد اجتماعاً عاماً بقلعة الجبل لإثبات نسب الخليفة احمد [1]، فحضر الشهود فقرئ نسبه على الناس، فأثبت من قبل القاضي تاج الدين ابن بنت الاعز، ولقبه بالحاكم بأمر الله (661 - 701هـ/ 1262-1301م)[2]، وبعد تلك الإجراءات بايعة السلطان بيبرس بالخلافة وعلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله[3]،وفي المقابل قلد السلطان الظاهر بيبرس من لدن الخليفة الحاكم بأمور البلاد ولقبه بـ ((قسيم أمير المؤمنين))[4].

تقدم الناس لمبايعة الخليفة الجديد، وهذا ما أكده المقريزي من خلال قوله: ((فلم يبق ملك ولا وزير ولا قاض ولا مشير ولا فقيه إلا وبايعه)) [5]، وخطب له على المنابر في مصر وبلاد الشام [6]، وفي اليوم الثاني اجتمع الناس وحضر السلطان بيبرس خطبة الخليفة الخليفة الحاكم بأمر الله الذي صعد على المنبر لأداء خطبة الجمعة، فقال: ((الحمد لله الذي أقام لكل بني العباس ركناً ظهيراً، وجعل لهم من لديه سلطاناً ونصيراً، واحمده على السراء والضراء ... فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال ... وهتكوا حرم الخليفة ... وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد ... قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ...)) [7]، وبعد أن أنهى الخليفة خطبته أمر السلطان الظاهر بيبرس أن يخطب للخليفة الحاكم بأمر الله على منابر مصر وبلاد الشام، وكتب إلى الأعمال بذلك [8].

لقد كان السلطان الظاهر بيبرس يمتلك من الفطنة والحنكة السياسية الشيء الكثير، فأراد من خلال ذلك أن يبين للخليفة الحاكم بان أمور الدولة كلها بيده، فوجه إليه إنذاراً

(1) احمد بن علي بن حمد بن المسترشد أبو العباس الحاكم بأمر الله ثاني خلفاء بني العباس في القاهرة، نشأ في بغداد واختفى بعد دخول المغول اليها فتوجه إلى حسين بن فلاح أمير قبيلة خفاجة العربية. للمزيد من التفاصيل ينظر: المقريزي، السلوك: ج1/ص542.

(2) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2/ص306؛ عبد الله بن فتح الغياثي، التاريخ الغياثي، تحقيق: طارق نافع الحمداني (مطبعة اسعد، بغداد: 1975 م)، ص 68؛ الكتبي، عيون التواريخ: ج2/ص 287؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 467.

(3) المقريزي، السلوك: ج1/ص547.

(4) يعد بيبرس أول من لقبه الخليفة بهذا اللقب. ينظر: العبادي، قيام دولة المماليك، ص 188.

(5) السلوك: ج1/ص547.

(6) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 189.

(7) المقريزي، السلوك: ج1/ص547-548؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ج5/ص443.

(8) المقريزي، المصدر نفسه: ج1/ص548.

بشكل غير مباشر، اذا ما حاول التمرد مستقبلاً على السلطان بيبرس، ففكر في جمع أبناء البيت العباسي بمصر لتجنب خطر التجاء بعضهم إلى احد ملوك الإسلام، فيعلن خلافته مثلما فعل الأمير أقوش البرلي في حلب مع الخليفة الحاكم بأمر الله عندما بايعه بالخلافة، فأصبح هناك خليفتان في وقت واحد في مصر وفي بلاد الشام، مما يدل على ذلك قدوم شخصين إلى السلطان بيبرس، وهو بدمشق سنة 664هـ/ 1266م، وادعى احدهما انه مبارك بن الخليفة المستعصم بالله ومعه جماعة من أمراء العرب، وادعى انه أحق بالخلافة من الحاكم بأمر الله، فعرضه السلطان على الأميرين جلال الدين بن الدوادار والطواشي مختار، فتبين أن نسبه غير صحيح إلا أن السلطان أرسله إلى مصر كإجراء احتياطي. أما الشخص الثاني فكان اسود اللون وادعى انه من أولاد الخلفاء، فبعثه السلطان بالأمر ذاته [1].

والذي يمكن ملاحظته أن ادعاءات هؤلاء الأمراء بانتمائهم إلى ذرية الخليفة العباسي المستعصم بالله هو غير صحيح، والدليل أن هولاكو عندما اقتحم مدينة بغداد واستباحها، قام بقتل الخليفة وأولاده.

وبهذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية في القاهرة، واستمرت لقرنيين ونصف، وما ترتب على هذا الأمر من نتائج مهمة انعكست على الدولة المملوكية، إذ أصبحت مدينة القاهرة المركز الديني والسياسي والعسكري والثقافي للعالم الإسلامي بدلا من بغداد، وهذا ما اكسب دولة المماليك مكانة روحية وسياسية، فضلاً عن اكتسابها أهمية كبيرة في نظر المسلمين كافة لكونها حاضرة الخلافة العباسية [2].

أما بالنسبة إلى مكانة الخليفة في الدولة المملوكية، فهي تعد من الأمور الهامة لحياة الخليفة وسلطته كخليفة للمسلمين عامة، فبعد أن أصبحت مصر مقر الخلافة العباسية، وقلب العالم الإسلامي النابض، أصبح وضع الخليفة العباسي ذليلا، إذ لم يكن الخليفة سوى ألعوبة بيد السلطان المملوكي يحركها كيف ما يشاء، وأصبح مظهرا خداعاً فقط أوجده المماليك حتى يدفعوا به أنظار الطامعين في السلطة، ولكي يقضوا على الشكوك في أحقيتهم بالحكم، وليس ذلك فحسب، بل لم يبق للخليفة دور فعلي في الحكم سوى حضور حفلات السلطنة،

(1) المصدر نفسه: ج2/ص36.

(2) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الاولى (دار المعارف، المعارف، القاهرة: 1974م)، ص23؛ توماس ارنولد، الخلافة، ترجمة: جميل معلى (د.م.، د. م: د. ت) ص 49؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية (مطابع سجل العرب، القاهرة: 1971م): ج 2/ص 1143.

وولاية العهد، ولا يحق له التدخل في شؤون الدولة المملوكية الا قليلاً، وخاصة في تنصيب السلطان،ويعلق عاشور على الحالة التي وصلت إليها الخلافة العباسية آنذاك قائلا: ((ليس فيها أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين)) [1]، بل إن الخليفة كان سجيناً تقريباً في مكانه الذي خصص له في أبراج القلعة [2].

لقد كانت معاملة السلطان بيبرس للخليفة الحاكم خير دليل على أهدافه الحقيقية من إحياء الخلافة العباسية، فقد بذل كل ما في وسعه من اجل إضعاف الخليفة حتى يصبح كما أراد له رمزاً دينياً دون أن يكون له سلطة دنيوية، فقد منع الخليفة من الظهور في الأوساط العامة للمجتمع ليبقى بعيداً عن الناس ورجال الحكم، وليس ذلك فحسب بل وصل الأمر إلى عدم أخذه تفويضاً منه بولاية العهد لابنه الملك السعيد، وإنما اصدر بنفسه التفويض، وجاء فيه ((ولا تدبير ملك كلي بنا أو بولدنا ليعمل)) [3]، ولذلك فقد رضخ للأمر الواقع بعد أن أدرك انه لا جدوى من المناقشة أو محاولة مقاومة السلطان، فاقتنع بما خصص له السلطان من راتب شهري [4]، وفي الواقع ان معظم سلاطين المماليك اهتموا بالخليفة العباسي من اجل الحصول على تفويض منه بالحكم هذا من جانب، ومن جانب آخر كان السلاطين المماليك يستميلون الخليفة إلى جانبهم، ولاسيما في الوقت الذي يتعرضون له من قبل أي أمير ثائر، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل طلبوا من الخليفة ان يخرج مع الجيش، وخاصة في حالة الحرب لرفع الروح المعنوية لدى الجنود، وكذلك لإضفاء روح من التبرك عليهم [5].

أما عن موقف العالم الإسلامي من الخلافة العباسية في القاهرة، وهل حظيت بتأييد كما في بغداد؟ فعلى ما يبدو أن الخلافة العباسية لم يكن لها الدعم الكافي والتأييد بل انقسم المسلمون بين مؤيد ومعارض لقيامها في القاهرة، لذلك فان نفوذ الخليفة العباسي لم يمتد خارج مناطق سلطة المماليك، والاهم من ذلك ان معظم حكام الإمارات الإسلامية لم يعترفوا بالخليفة العباسي في القاهرة، ولم يدعوا له على المنابر، كما كان الخليفة في بغداد، بل أن أميري مكة والمدينة، وهما يمثلان قلب العالم الإسلامي، لم يؤيدا الخلفاء العباسيين في القاهرة إلا خليفة واحد وهو المستعين بالله (808-815هـ/1405-1412م)، فضلاً عن أن كثير من

(1) سعيد عاشور، مصر في عصر، ص 183.
(2) العبادي، قيام دولة المماليك، ص 189؛ سعيد عاشور، المرجع نفسه، ص 183.
(3) المقريزي، السلوك: ج1/ص650.
(4) الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص235.
(5) سعيد عاشور، مصر في عصر، ص 183-184.

المسلمين ابدوا سخريتهم من الخليفة العباسي في القاهرة، وكذبوا ادعاءاته وشككوا في نسبه إلى البيت العباسي [1] بل أن بعض المسلمين راءوا أن الخلافة لم تدم أكثر من ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول ﷺ مستندين إلى حديث الرسول محمد صلى الله علية وسلم ((الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك)) [2]، ويعلق المقريزي على ذلك قائلاً: ((إن الخلافة أصبحت ملكية مطبوعة بطابع العنف والاستبداد بعد الخلفاء الأربعة)) [3].

لقد أشار الخربوطلي إلى أن الخلافة انتهت بصورة حاسمة منذ استشهاد اخر خليفة عباسي في بغداد على ايدي المغول، وان الخلفاء في القاهرة لم يبق لهم من الخلافة سوى اسمها فقط[4]، واستمراراً لعملية المعارضة ضد اقامة الخلافة في القاهرة من قبل الحكام المسلمين، أنهم وجدوا أن التلقب بلقب الخلافة لابد أن يكون في شخص واحد ومن النسل العباسي، فحصل أن أبا عبد الله الحفصي حاكم تونس (647-676هـ/1249-1277) تلقب بلقب الخليفة دعماً له من شريف مكة، بل أن في سنة 668هـ/1269م عندما سقطت دولة الموحدين تلقب أبو عنان حاكم الدولة المرينية في مراكش بلقب خليفة أيضاً[5].

أما على مستوى الحكام الذين دخلوا في الإسلام مثل خانات المغول، فقد كانت علاقتهم بالخلافة متأرجحة ما بين التأييد المطلق وبين عدم إعطاء الأهمية للخلافة، فالمغول بعد دخولهم الإسلام أرادوا إبدال نظمهم القبلية بالشريعة الإسلامية، إلا أنهم لم يهتموا مطلقا بان يحصلوا على تفويض من الخلافة العباسية في القاهرة [6].

إما ملوك الهند كانوا على عكس خانات المغول فقد اعترف معظمهم بالخلفاء العباسيين بل أنهم حاولوا الاعتماد عليهم في تدعيم سلطتهم، إذ بعث احد ملوكهم، وهو باهمان شاه ملك الدكن إلى الخليفة المعتضد بالله (748-763هـ/1347-1361م) يطلب منه أن يعترف به ملكا على بلاده في سنة 756هـ /1356م، فتم له ذلك، كما أرسل محمد بن تغلق إلى الخليفة المستكفي بالله (845-855هـ/1441-1451م) يطلب منه تفويضاً بالحكم، فضلاً عن إرساله الهدايا الثمينة، وانه أمر بالدعاء على المنابر للخليفة، ونقش اسمه على السكة. أما السلطان العثماني بايزيد الأول (792- 806هـ/1389-1403م)، فقد أرسل في سنة 797هـ/1394م إلى

(1) الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 246-247؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص 101.
(2) محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، سنن الترمذي: تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون (دار إحياء التراث العربي، بيروت: د.ت.): ج4/ ص305.
(3) السلوك: 37/2؛ الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 247.
(4) الإسلام والخلافة، ص 247.
(5) أهدى الرحالة ابن بطوطة كتابه المعروف باسم رحلة ابن بطوطة (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) هدية إلى حاكم الدولة المرينية، فكان يدعوه بالخليفة وأمير المؤمنين، وظل الله على أرضه. ينظر: الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 251.
(6) الخربوطلي، المرجع نفسه، ص 248؛ ارنولد، الخلافة، ص 62.

الخليفة العباسي المتوكل بالله (791-808هـ/1388-1405م) يلتمس منه أن يمنحه لقب سلطان [1] في الدولة العثمانية [2].

وبذلك استمرت الخلافة العباسية في القاهرة قرنين ونصف، كان خلالها الخليفة مجرد رمز ديني مسلوب من جميع السلطات الدنيوية التي كانت بيد الملوك الأيوبيين، ومن

الفصل الثالث

السلطان الظاهر بيبرس ومملكة أرمينية الصغرى

(1) يلاحظ أن لفظ سلطان ظهر أول الأمر في أواسط آسيا واستخدمه الغزنويون والسلاجقة، وغيرهم من الأتراك كرمز للسلطة الدينية، ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر أيام الحكم الأيوبي. ينظر: العبادي، قيام دولة المماليك، ص190.

(2) الخربوطلي، الإسلام والخلافة، ص 249-250؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص 97.

(3) عبد القادر احمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر (منشورات المكتبة العصرية، بيروت: 1969م)، ص 209-210؛

Fillip , Hitti , History of Arab (No. p. , London: 1960) p. 674.